القيادي في الطريقة القادرية البودشيشية

محمد المصطفى عزام: التجديد الفكري لا يبدأ الا بالتجديد الايماني

الرباط ـ «القدس العربي»

ـ من منتصر حمادة:

يرى محمد المصطفى عزام أننا نشهد اليوم من التجني على الانسان وعلى المسلمين ما كان أكثره من نتاج الفكر المفصول عن الوحي الالهي أو الذي أراد أن يتجاوز هذا الوحي، ويضيف المصطفى عزام، الأستاذ بكلية الآداب بالرباط، ومقدم الطريقة القادرية البودشيشية بالرباط وسلا أن دور الزاوية الصوفية في تاريخ المسلمين هو القيام بفتح أقفال التقليد والابتداع التي رانت على قلوب الناس حتى يستطيعوا تدبر القرآن والعمل به لمزيد فهمه وتدبره من جديد. مضيفا أن التجديد في المسلك الصوفي ايقاظ لجذوة الايمان في القلوب دون مجافاة مبدئية لمقتضيات العصر من جهة، ودون انسياق أعمى لهذه المقتضيات، وهذه الاستقامة على التوسط هي أصعب معادلة يعانيها الانسان المسلم في هذا العصر.

«القدس العربي» التقت مع مسؤول قيادي في الطريقة القادرية البودشيشية، وسألته عن موقف الزاوية من انتقادات التيارات السلفية واشكالية حضور الشيخ ودور الزاوية في مطلب التجديد الديني، وأسئلة أخرى، فكان هذا اللقاء.

■ تركز أغلب الأصوات الاسلامية على أهمية التجديد الاسلامي في شقه الفكري، في حين تركز أدبيات وممارسات الزاوية البودشيشية على تجديد ديني يقوم بالدرجة الأولى على الشق التربوي الصرف. أليس ثمة تناقض بين المطلبين؟

■ الحديث عن «الفكر» شبيه بالحديث عن «العقل»، فكلاهما مصدر نقل الى الاسمية في الاستعمال العربي الذي يقرب بين معنيهما أحيانا وأحيانا أخرى يخص كلا منهما بمعنى يتأرجح بين التجسيد والتجريد. وغالبا ما يقرن الفكر بالتأمل الذهني وما ينتج عنه من معان وقيم تنسب الى أصحابها أفرادا أو مذاهب أو جماعات. ومن شأن الفكر البشري أن يتطور تقدما أو تأخرا وأن يختلف المفكرون وتتعارض أفكارهم وقد يكمل بعضهم بعضا كما أن من شأن الفكر كذلك التأثير والتأثر.

والدين وحي أساسا بالتوحيد وبحقائق عليا وكليات شاملة ونهائية لا مطمع للفكر البشري في ادراكها، بل انه ممنوع شرعا من تناول بعضها كذات الله سبحانه، لكن التصديق بتلك الحقائق هو آلية الايمان الغيبي بها للعمل بمقتضاها. غير أن المؤمن مطالب باعمال فكره لاستنباط أحكام الفروع والنوازل وادراك بعض أسرار العبادات والمخلوقات استزادة للايمان والعمل النافع للبشرية. فمحتوى الفكر ينبغي أن يكون هو الاعتقاد الغيبي بوحدانية الله وما أوحى به أولا ثم ما ينتج عن التفكر في الخلق مما ينفع الناس. من هنا كان لا بد أن يخضع هذا الفكر ـ أو التفكير ـ لتوجيه وتربية حتى لا ينحرف أو يتضمن ما لا ينفع أو ما يكون فسادا في الأرض، وحتى يكون الفكر سويا سليما كما أراد الخالق أن يكون. وتاريخ الفكر الانساني والاسلامي نفسه مليء بما لم يكن في صالح الانسان ولا المسلمين، كما أننا اليوم نشاهد من التجني على الانسان وعلى المسلمين ما كان أكثره من نتاج الفكر المفصول عن الوحي الالهي أو الذي أراد أن يتجاوز هذا الوحي.

فالفكر السوي هو الذي يرجع الى الفطرة المقومة بالتربية السليمة ليتعامل مع الشرع الاسلامي بالتلقي لا بالتحكم، لأن الشارع الحكيم يشترط تغيير ما بالنفس أولا كما في الآية الكريمة، و(الكتاب لا ريب) أن (فيه هدى) ولكن (للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...) (الآية)، والايمان بالغيب الموحى به يزيد وينقص فيحتاج الى تربية لزيادته، وهذا الايمان هو الذي يثمر من الفكر ما ينفع. وقد صورت السنة المطهرة الفرد أو الجماعة جسدا لا يصلح الا بصلاح القلب، ولا صلاح للقلب الا بتزكية موروثة عن التزكية النبوية. ان أي تجديد فكري لا يمكن الا أن يبدأ بتجديد ايماني، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجديد الايمان كما بين أن ذكر الله أنجع وسيلة لهذا التجديد لأن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، ومن ثم نجد أن أهم وسيلة يستعملها شيوخ التربية الصوفية هي الاكثار من ذكر الله، وعلى الخصوص كلمة التوحيد (لا اله الا الله) لأن غاية التربية على التوحيد هو التحقق بالعبودية لله وحده من دون الخلق والهوى، ولأن التربية مستمدة من معنى الربوبية الذي لا يناسبه من جانب العبد الا الأخلاق المحمدية التي هي النموذج الأمثل للانسان، وهذه الأخلاق تحتاج الى تربية كما أن الفكر سلوك أيضا ينبغي أن يخضع لهذه الأخلاق حتى يكون ربانيا لا حكم للهوى عليه.

■ كيف يصح الحديث عن دور تجديدي تقوم به الزاوية في ظرفية تتسم بتصاعد أصوات سلفية المذهب تؤسس أدبياتها على نصوص قرآنية ونبوية شريفة لا تتردد في تبديع ممارسات الزوايا عموما؟

■ القرآن والحديث هما المصدران المرجعيان لكل فكر أو عمل في الاسلام، ولا يجوز أن يقع الخلاف في كونهما أساس التشريع والسلوك، غير أن كيفية التعامل مع نصوص هذين المصدرين هو مظنة الخلاف أحيانا. ومنذ البدء كان الايمان والعمل معا مفتاح التجدد الفردي والجماعي في الاسلام، لأن هذا المفتاح هو الذي يفتح باب الفكر على المعرفة والفهم، ذلك أن «نظرية» المعرفة في الاسلام تستند الى آلية العمل بايمان، والايمان يستلزم حال المحبة، وهذا النوع من الايمان هو مسبار النصوص وأداة تمحيص حقائقها. أما مصطلح «السلفية» أو «السنية» فهو لا يعدو أن يكون مزايدة أو لافتة تستعملها بعض الجهات أو التنظيمات للاغراء والتغرير، مما يخلق في الأمة شروخا وافتراقا، وهناك فرق بين التسمية باسم تخصيصي، وهي سنة كونية، وبين الانتساب الى السنة أو السلف رميا للغير بأنهم غير سنيين أو مخالفون للسلف، ومن هنا تتحمل جهات معينة وزر اتهام أهل القبلة بالابتداع والتكفير دون تورع أو تفكير، وقد ظهر اليوم عوارها للعالمين.

■ ولكن، ثمة نصوص مؤسسة لمنظومة «البدعة» نطلع عليها في أدبيات «التيارات السلفية» عموما؟

■ لقد تناول العلماء موضوع البدعة بالدرس والتصنيف العلمي الرصين كالامام عز الدين بن عبد السلام والعلامة عبد الله بن الصديق الحسني، ولم يتركوا فيه مجالا للجهلة السطحيين، كما أن كثيرا من علماء الأمة تناولوا دعوى السلفية بالتمحيص والتقويم أمثال سليمان بن عبد الوهاب ـ وهو أخ محمد بن عبد الوهاب الذي تنسب اليه نحلة الوهابية ـ في كتابه «الصواعق الالهية في الرد على الوهابية»، والسيد أحمد بن زيني دحلان في كتابه «الدرر السنية في الرد على الوهابية»، ومحمد حسين آل كاشف الغطاء في «نقض فتاوى الوهابية»، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب اسلامي».

ان دور الزاوية الصوفية في تاريخ المسلمين هو القيام بفتح أقفال التقليد والابتداع التي رانت على قلوب الناس حتى يستطيعوا تدبر القرآن والعمل به لمزيد فهمه وتدبره من جديد. وقد لا يتسع المجال لسرد أدوار الزوايا المغربية في تجديد الايمان في الأعماق ونشر الدين في الآفاق، ويكفي شاهدا على ذاك التجديد كثرة الأولياء ببلادنا ودليلا على هذا النشر أكثر بلاد أفريقيا وبعض بلدان الشرق الأدنى والأقصى. والتجديد في فلسفة التصوف هو تجديد للانسان كليا انطلاقا من قلبه ليتجدد عمله وفهمه، وذلك ما تروم الزاوية القادرية البودشيشية وشيخها القيام به في هدوء وثبات دون مغالاة ولا تهريج، وذلك بالاشتغال بذكر الله وتطهير القلوب من سواه دون الاشتغال بالغير والوقوع في اغتياب المسلمين والتفريق بينهم، فمن مبادئ التربية العملية للزاوية أن يتحقق أفرادها بالتوحيد على المستوى الفردي لينجمع شمل الانسان على الله، وعلى المستوى الجماعي ليجتمع شمل المسلمين على المحبة في الله، فلا معنى للنصوص في طريق القوم الا أن ينفعل بها الناس ويتفاعلوا معها فتصبح دماء تجري في عروقهم وروحا تحركهم، والا فالنصوص نفسها قد تفرقهم كما حصل للأجيال التي تلت الصدر الأول والسلف الصالح اذ شرذمت الملل والنحل كثيرا من تلك الأجيال وكان من أهم أسباب تشرذمها الخلاف حول فهم النصوص.

والتجديد الصوفي لا يروم الرجوع بالناس الى نمط مظهري وحيد أو نموذج شكلي فريد من الحياة التي عاشها الأسلاف، كما يروم ذلك بعض الناس انطلاقا من تصوراتهم لمعاني النصوص، وانما التجديد في المسلك الصوفي ايقاظ لجذوة الايمان في القلوب دون مجافاة مبدئية لمقتضيات العصر من جهة، ودون انسياق أعمى لهذه المقتضيات، وهذه الاستقامة على التوسط هي أصعب معادلة يعانيها الانسان المسلم في هذا العصر، ولا يساعد على حل اشكالها عمليا للافلات من تطرفيها الا أن يرحم الله عبده بقدوة صالحة تقيه وساوس النفس ومزالق الحياة.

■ كيف تردون على الملاحظات والانتقادات التي تروج حول اشكالية حضور ودور الشيخ في التربية لدى الطرقية بصفة عامة، ولدى الزاوية البودشيشية بصفة خاصة؟

■ أولا الملاحظات والانتقادات لم يسلم ولن يسلم منها أحد، وقد استهدفت حتى الأنبياء والرسل عليهم السلام، فلا غرابة فيها خصوصا في هذا العصر الذي ابتعد فيه الناس عن أكثر القيم والمكارم واشتغلوا بالسفاسف والأعراض. أما حضور الشيخ ودوره في التربية الروحية فهو عنصر ضروري في هذه التربية، اذ لا تربية من غير مرب أصلا.

سبق أن أثير نقاش في القرن الثامن الهجري بالأندلس مداره خلاف بين من يؤكد على ضرورة الشيخ في التربية الصوفية وبين من يرى امكان الاستعاضة عنه بكتب القوم، وأدى هذا الخلاف بالشاطبي الى استفتاء بعض علماء المغرب في الأمر فكانت أجوبة كل من القباب وابن عباد شافية في الموضوع، وهي منشورة في «المعيار» للونشريسي، ثم ان ابن خلدون ألف في تفصيل هذا الموضوع كتاب «شفاء السائل لتهذيب المسائل»، ولخص الشيخ زروق آراء هؤلاء جميعا في قواعده وفي «عدة المريد». والجدير بالملاحظة أن سلوك الطريق الصوفي لم يكن موضوع الخلاف بين أولئك المختلفين، كما أن المجيبين عموما ما يبيحوا الاقتداء بكتب التصوف الا عند انعدام الشيخ، بل لم يجوزوا من الكتب الا ما كان متضمنا لمجاهدة التقوى والاستقامة، أما الترقية والكشف فقد أوجبوا فيها الشيخ حتما، كما أنهم اعتبروا حال المتلقي لما في الكتب اذ لا يستفيد منها في السلوك الا الذكي اللبيب، ومع ذلك فانه لا يسلم من رعونة نفسه كما نص على ذلك الشيخ زروق.

ولما غدا لفظ الشيخ غريبا ومنفرا لبعض النفوس، وهو مجرد اصطلاح مع أن جميع العلوم كانت تؤخذ عن الشيوخ، فانه يمكن الاستعاضة عنه بما يحمل مضمونه الشرعي كالصاحب أو الأخ في الله أو الرفيق في الطريق الى الله، وهذه المصطلحات الأخيرة هي التي يستعملها سيدي حمزة بن العباس اذ يرى أن ما يجمعه بمريدي الله عز وجل وهو أخوة ومحبة في الله تقتضي التعاون على البر والتقوى كما هو مأمور به، وذلك من أجل اصلاح القلوب وتوحيدها، والعبرة في كل هذا بالنتائج التي يجنيها كل من استفاد من هذه الصحبة وهي نتائج تتجلى في محبة الله ورسوله والمؤمنين وزيادة اليقين والصدق في المعاملة والاخلاص في خدمة الصالح العام.

■ ما هي الاضافات النوعية التي جسدها الشيخ حمزة الودشيشي في الممارسة التربوية مقارنة مع حقبة «الما قبل»؟

■ تاريخ الاسلام حافل بنماذج المصلحين الصالحين الذين ورثوا علم التزكية وتجديد الايمان في القلوب، ووسائل تجديدهم متنوعة ولكنها ذات أصل واحد وهدف واحد، والقاعدة التي كثيرا ما ذكرها الشيخ سيدي حمزة هي أن كل مرب يستعمل من وسائل التربية ما يناسب عصره، مع الحفاظ على جوهر الدين وثوابته عملا بأوامر الشرع ووقوفا عند نواهيه.

واذا ما رجعنا قليلا الى بدايات القرن الماضي، فاننا نجد عند الكثير من شيوخ التصوف أساليب في التزكية تشبه ما كان متبعا منذ قرون، اذ يشترطون على من يريد سلوك الطريق أن يكون على حظ كبير من الاجتهاد وعلى هيئة معينة، وأن يتخلى عن كثير من عوائد حياته الفردية والاجتماعية، وكثيرا ما كان يكلف الشيخ المريد بأعمال تمحص صدق ارادته وتختبر مدى تملكه لنفسه والتحكم في أهوائه.

ولم تخل طريقة سيدي أبي مدين ـ شيخ سيدي حمزة وأبيه سيدي العباس ـ من بعض التشدد في الورع تشددا كان يمارسه على نفسه ويطالب به أصحابه، مما جعل كثيرا منهم لا يقوون على مصاحبته، فبقيت الطريقة محصورة في عدد قليل، ولم تعرف بعض الانتشار الا في فترة سيدي العباس الذي احتضن المريدين وحدب عليهم الى أن استلم سيدي حمزة مهمة التربية الروحية ففتح الباب على مصراعيه لكل التائبين والراجعين الى الله من دون قيد ولا شرط الا ذكر الله والتزام شرعه، مرددا قوله تعالى:(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا(فأقبل الناس على الله أفواجا بعد أفواج وتزايد عدد المريدين من جميع الشرائح والأعمار والأجناس، يخبر بعضهم بعضا بما وجده في اتباع الطريق من رحمة وفضل وصفاء ومحبة؛ وفي هذا المظهر بعض مما وصى به سيدي العباس ابنه سيدي حمزة وذلك بألا يدعي مشيخة ولا ارشادا وأن يترك المدد الساري في المريدين هو الذي ينطقهم بما يجدونه في قلوبهم وأحوالهم.

محمد المصطفى عزام (القدس العربي)

سعدي يوسف والدروس العشرة لنقاده

شاكر لعيبي*

■ تعودنا على أن نرى في سجالات بعض المثقفين العرب الكثير من السرعة والآنية والعاطفية، بل الحماس والاندفاع المتسرع. وكل ذلك له علاقة بنسق الفكر الجاري تعلمه في مدارس العرب الكبرى التي تقيم الاعتبار لأساليب الموضة ومقاربات الإشاعة الثقافية وتضخيمات الميديا واستعارات المصالح الشخصية ومفاهيم الأيديولوجيا ومجازات الصحافة اليومية واشتقاقاتها، وذلك قبل التحليل الفاحص والقراءات الاصطلاحية المتمعنة. من يطلع على المواقع العربية (والعراقية خاصة) سيرى انفجارات وتدفقات من الكلام، عن كل شيء وفي نقد كلّ شيء وفي تسفيه أشياء كثيرة، وباستشهادات وأسماء موضوعة من دون ذرة من الرحمة، وكلها مكتوبة على عجل لا يليق بالنقد، كأن مكبوتا تاريخياً قد تفجر على غير ميعاد، وكأن الأرض قد زلزلت زلزالها.

واحدٌ من أكثر الشعراء العرب إثارة للإشكاليات في الفترة الأخيرة هو سعدي يوسف، وذلك بسبب موقفه الصريح المناوئ للطريقة (أو لاجتهاد الغالبية الوطنية العراقية) المُدار بها والمُعالج عبرها احتلال العراق. وهو موقف مكّن أنصار الظلام القدماء والجدد وأصدقاء البعث المستترين والمعادين للأمريكان خبط عشواء وغيرهم من النهل من معنى موقفه لأجل معانيهم، كما أنه موقفٌ قاد جمهرةً من العراقيين إلى نقد أقل ما يقال فيه أنه تنقصه الدماثة والبصيرةً. هاهي بعض العناوين: (دفاعا عن النقد... حزنا على سعدي يوسف: فهد ناصر، الحوار المتمدن ـ العدد: 925 ـ 2004 / 8 / 14)، (القس سعدي يوسف يطل من شباكه اللندني: أحمد مصارع ، الحوار المتمدن ـ العدد: 1148 ـ 2005 / 3 / 26)، (إلى رجل الايروتيكا السياسية سعدي يوسف: محسن صابط الجيلاوي)، (على من تجاوز سعدي يوسف على الطالباني أم على نفسه؟: سردار عبد الله، الحوار المتمدن ـ العدد: 698 ـ 2003 / 12 / 30)، (سعدي يوسف ، واجتماعات بنات آوى: أحمد المعرفي، الحوار المتمدن ـ العدد: 756 ـ 2004 / 2 / 26)، (سعدي يوسف .. من التغني بالناس إلى السخرية منهم! عفوا سيدي الأخضر.. لقد خاب ظننا: صادق الأزرقي، الحوار المتمدن ـ العدد: 752 ـ 2004 / 2 / 22) وأخيرا وليس آخرا مقالة مهدي قاسم في (موقع كتابات 26 حزيران 2005) تحت عنوان سجعي (واق واق هلموا إلى جبهة سعدي الثقافية يا رفاق). وأجد الكلمة الأخيرة ذات معان جمة سآتي إليها فيما بعد.

وبطبيعة الحال نسارع القول أن هدفنا ليس بحال الدفاع عن سعدي يوسف القادر على الدفاع عن نفسه، ولا تأييد مواقفه المعروفة ولا الانضمام إلى صف نقاده أو مستثمري أفكاره الحالية، بقدر ما هي استخراج بعض الدروس عن النسق الذي تعمل وفقه الثقافة في سياقاتنا وعن دلالة الاختلاف ومعنى قبول الآخر في أمّةٍ من الكُتّاب التي تزعم قبول الآخر.

ما الذي يمكن ملاحظته في جملة النقد الموجه لهذا الشاعر العراقي الكبير؟

1ـ خلط فاضح بين قصائد الشاعر ومواقفه الراهنة. فجأة يقود اختلاف الفكر وتباين الاجتهادات بين الشاعر وقراء الأمس المتحمسين إلى نفي شعره اليوم ووصمه بشتى العيوب. فلا هم في معرض نقد شعريٍّ جماليٍّ متماسك ولا هم في مقام سجالٍ سياسيٍّ وفكري صارم. إنهم يتأرجحون بين اثنين ملغين المسافة الضرورية لاحترام الجمالي. وإذا كان صحيحا أن شعر سعدي نفسه ينهل من السياسي والآني ساعياً إلى إدغامه في الجمالي فمن الصحيح كذلك أن نقاده ينهلون من السياسي والآني وحدهما من دون أفق من نوع آخر، لكي يُصاب نقدهم بضيق أفق سيبرهن التاريخ عليه. إنهم يراوحون في إطار النصيحة ويجازفون بكلام قاس. لنقرأ ما يكتب مهدي قاسم: "كنتُ أتوقع أن ثمّة، مَن سينصح برجينيف الشعر العراقي و(شيخنا الجليل) سعدي يوسف، بأن يكف عن كتابة قصائد في منتهى السخف والرثاثة والتهافت، وذلك احتراما لماضيه الشعري الذي كان يحتوي على بعض الشعر الجميل والرائع بالفعل". هكذا دفعة واحدة (السخف) و(الرثاثة) و(التهافت) و(بعض الشعر الجميل) دون احترام لمبدأ الاختلاف ولا لنبل الخصومة ومن دون التعالي على الشتيمة المجانية.

2ـ في جملة النقود المكتوبة مع الشاعر أو ضده، ثمة فكر غير مصرَّح به مفاده اعتقاد النقاد أن على هذا الأخير أن يتماهى مع صوت الجماعة ظالما ومظلوماً. وهنا عود غير حميد لمنطقٍ بائد. ليس الشاعر بالضرورة صوت الجماعة، وليست الجماعة بمعصومة عن الفوضى والقلق والخطأ الوجودي والتردي الروحي.

3ـ يجري في الغالب اختصار تجربة الشاعر بسنوات قلائل أخيرة أو بقصائد محدودة في الزمن وفي الموضوع. اختصارٌ يسمح لنقاد الشاعر بالذهاب حيثما يشاءون ويتصرفون، ظالمين، في تاريخ شعري مديد يقوم في آن واحد على التأمل والتجريب المستمر من جهة وعلى الانهماك بشجون الحياة الآنية والطفيفة من جهة أخرى. اختصار يسمح لنا بالقول إن المشهد الشعري العراقي يشهد استخداماً سيئاً للعبارة وظلماً في إطلاق إحكام القيمة (المرفوضة على كل حال) وقسوة في الاقتراب من الآخر وإلغاءات غير مبررة لرموزه الشعرية، وكلها لا مثيل لها، وهي الظاهرة التي عمقتْها المنافي والحروب والانشطارات من كل نوع، الفيزيقية والنفسية، كما ضعف المتابعة النقدية من دون شك.

4ـ أحسب أن سقوط هيبة الشاعر في خطابات مثل الخطاب عديم الرحمة الموجّه لأعمال ومواقف سعدي يوسف، له عواقب وخيمة على وضعية الشعر ومقام الشعراء في العالم العربي، الصعاليك منهم والحكماء، يمينا ويساراً، الصغار والكبار. وإذا ما كنا في معارضة تامة لكل ما هو بطريركي في الحياة والشعر، وإذا ما رفضنا التحقيب العشري للأجيال، وإذا ما آمنا بالحق المطلق للجميع بالإدلاء بدلائهم في شتى المواضيع، فلا نتفق مع من يلغي المساحة الضرورية للاحترام والود والمحبة، أي لاخلاقيات الكينونة والكائن .Çthique يكاد غياب (الأخلاقي) رفيع المستوى أن يصير القاعدة كلما تعلق الأمر بمناقشة مُختلفٍ من المختلفات مع شاعرٍ من الشعراء ,وهنا يمنَحنا نقاد سعدي يوسف مناسبة ثمينة للتأكد من أن الأخلاقي الغائب عندهم ضروري في الحقل الفكري والسجالي.

5ـ إن سعدي يوسف من بين جميع مجايليه من الشعراء هو الأكثر انهماكاً بالشجن العام، وهو من دون شك الأكثر تواضعاً من بين الشعراء العرب الأحياء، وقد انصرف لمتابعة كل ما يقع بيده من شعر عربي أو أجنبي قراءةً وترجمةً، ويكاد يكون الوحيد من بين (الكبار) ممن كتب عن جميع الأجيال الشعرية وبالأسماء من دون كبرياء المزعومين الكبار. هؤلاء انصرفوا لأنواتهم المتضخمة وسيرورات وجودهم الخارق للعادة وظلوا يتعالون إذا لم يضعوا النظريات عن الطبائع المتأصلة للشعوب العربية. إن خصّيصة اندماج سعدي يوسف في الحياة ومغزى تواضعه وحرقته على شعبه ومصائر المنطقة منسية لدى نقاده لصالح تضخيم العيوب وجرح القلوب.

6ـ بعض نقاد الشاعر المشهور لم يقرأ شعره البتة (أو القليل منه)، وقرأ نثره السياسي فحسب وهو الأمر الذي يمكن برهنته لو لا ضيق مساحات الصحافة. والظاهرة عينها يمكن تعميمها على جيل آخر من الشعراء العراقيين المنهمكين، إلى جانب حُرقة الشعر الوجودية، بالكتابة الفكرية والفلسفية التي تغدو مقروءةً وحدها بالضبط لدى الغالبية المطلقة من القراء في العشر سنوات الأخيرة. ما تبقى يظلّ من باب الإشاعات الشعرية لا غير لدى أولئك. تشفّ بعض النقود المُقالة بصدد مواقف الشاعر أن النقاد لا يعرفون شعر الشاعر إلا سماعاً، ويحرصون على قراءة أدبه السياسي الذي يبدو الأكثر أهمية في عيونهم في هذه اللحظة بالضبط.

7ـ هفوات الشاعر غير مسموح بها في الثقافة العربية. ثمة قداسة من أصول عربية قديمة عن دور الشعر ووظائف الشاعر، ما زالت تشتغل مداورة في صلب النقد الراهن الذي يزعم تخطي كل أنماط القداسات والمقدّس والأيديولوجي الباهت. وإذا ما وُجدتْ أخطاء ونزوات إنسانية واجتهادات لا يقبلها بعض النقاد، فالأمر يصير دافعا إلى نفي الشاعر جملة وتفصيلاً، وفي أحسن الأحوال إلى التشديد على أهمية الماضي الشعري الجميل. هذه الاستراتيجية لا تستطيع أن ترى في عمل الشاعر (وحدة) متسقةً وتجربة وجودية حميمية متصلة، وتنزع نحو انتقائية مقطعة الأوصال، تقطّع المفاصل الأساسية التي يتكون منها الكائن الحي الذي يُنتج شعرا حياً.

8ـ إن الانقسام الحاد حول شعر سعدي يوسف بين قادح شرس يَسِمُ شعره الأخير بالجفاف ومادح ثابت الخطو، وكلاهما لا يقدمان غالباً تحليلات نصية قدر ما ينطلقان من مصادر من طينة ليست أدبية يشكل دليلاً على حيوية شعر الشاعر واتصاله بمشكلتي الوجود، العميقة والآنية، التي لا يرى كل طرف إلا وجهة واحدة منهما.

9ـ لا يضع نقاد الشاعر في حسبانهم إن سعدي يوسف قد كان في حالات كثيرة ضد الموجة، وكان في عين الوقت الأقل انفعالاً من القضايا الكبيرة المطروحة، وبنوبات من نزق الشاعر الأصيل مرات، وكان يضع للعقل والضمير دوراً أساسياً في عملهِ النقدي والشعري وخياراته في الترجمة.

10ـ إن وجهة نظر الشاعر من قضية معالجة الاحتلال تستحق المزيد من التأمل، ولا نراها تحتمل رفضاً عاطفياً متعجلاً منفعلاً بادياً في كتابات نقاده. قد تبدي الأيام لهؤلاء ما يجهله أفقهم. ها هنا لا توجد دعوة لقبول وجهة نظر الشاعر بقدر ما هي دعوة للتفكّر في حكمة شاعرٍ بلغ السبعين من عمره، علّم بعضاً من نقاد اليوم الكثير.

* شاعر من العراق.

سعدي يوسف (القدس العربي)

تابوت القيامة

فيصل قرقطي *

رفعتْ عقيرتَها الرياحُ،
وغصَّت الأرضُ الطهورةُ بالمنى،
نَسكَتْ قوافي الأولينَ،
تَهَوْدَجَ الجرحُ المقاولُ،
غادرَتْ سُفُنٌ معبَّأةٌ نبيذَ الاعتراف
تمايلَ التلُّ الغفورُ. انشقَّ صدرُ القافية.

وتَجَمْهَرَ الجُنْدُ الطغاةُ على نوافذِ روحيَ،
الذكرى مخزَّنَةٌ بتابوتِ القيامةِ /
والسلاحُ هو السلاحُ /
يجنُّ أو يرْغي /
ويبصقُ ما تبقَّى من حياةٍ في جبينِ القافلة.

هتَكَ الطغاةُ وصيَّةَ الأبناء /
فانْكَسَرَتْ زجاجاتُ الخلودِ /
كَبَّوا دلالَ العاشقات /
ونصَّبوا الإيقاعَ رهناً للسؤالِ..
ومالَ أفقُ الخطو مالْ /
صَحْرٌ ضلَّ ميثاقَ التمنِّي /
قهوةٌ نعستْ على شفتينِ باكيتينِ /
فجرٌ غارقٌ في صحْوِه /
مُرٌّ يُزَغْرِدُ في الذهابِ وفي الإيابْ.

رفعتْ عقيرتَهَا الرياحُ /
تنادمَ المتوجسونَ على ظلالي /
أرَّخَ الحكماءُ دمعي /
واستفاقَتْ ذكرياتُ مواقعي ومواجعي /
صُلِبَ الصليبُ على جراحي /
فاستفاقَ النزْفُ /
لوَّنَ قامةَ الحناءِ في صبَواتِها /
أرضٌ تحنُّ ولا تخون
دمعٌ يجفُّ ولا يهون
جسدٌ يعبِّئُه الردى في محنةِ الطقسِ
الجنون.

حرسٌ وراءَ البابِ
متراسُ شوكٍ في الدروبْ
عرباتُ موتٍ في الطريقِ إلى الإيابْ

جنودٌ أشقياءٌ طاردوا سرجَ الخطى /
انسكبوا على جرحِ الحياةِ /
يُمَارِسونَ الحبَّ بالذكرى /
وينْفَجِرونَ في زَخَمِ الرجولة.

حرسٌ وراءَ البابِ
يمنعني العبور
عد
فأعودُ من ثقلِ الزنازينِ التي تتشفَّعُ
ومصبراً عيْناً
لاحسرةً منِّي إليه
بل حسرةً منِّي عليه
وعُدْ كما كانَتْ جِرارُ الأولينَ
تنامُ في طقْسِ الظلامِ.

أُحِسُّ مَشيْئَةً هتَكَتْ بكارتَها،
تنادي الأولينَ على صقيعِ الأزْمِنةْ
فاسودَّ وجهُ الماء!..
كانَ الجنْدُ يكْتَمِلونَ بالحنَّاءِ والفحمِ
الطريِّ / وأسلحة
كنْتُ الفلسطينيَّ منهزماً ومنتصراً
بإنْسَانيَّتي والأضرحةْ
أحدٌ يكُوِّنُني ليشقَى
أحدٌ يُفَتِّتُني ليبقَى

ماردٌ /
صنَمٌ خجولٌ /
نازفٌ من صمت أسلحَتي
وأسلحتي كلامٌ في صفاءِ الروحِ تتْبَعُني
شظاياها
وأمْسي سلَّمٌ للحرْقِ هل تُجْدي وصاياها
؟!
أحبُّك ما استطعْتُ منَ الحياة..
وما استطعْتُ منَ المات
فكَيْفَ لي
وهْجُ النشيجِ على نزيفِ
للنشيدِ

وأقْتَفي إثْرَ المدى
كانتْ حكايتُنا سدى
كانَ السلامُ على سجيَّتِه
يخونُ
وكانت الدنيا جراحاً في
العيون
وكنتُ وحدي أرسمُ
الأملَ الحزينْ.
من أينَ تأتي زلفةُ
الخطْوِ اللعين؟!
أبارحُ التسآلَ يوماً
أتَّقي شرَّ الظنون
فينكفئ فينا سموُّ الأولَّين

ترابٌ جائعٌ للسطْوِ
أحجارٌ تؤرِّخُ مبتدَاها
ترابٌ جارحٌ في الدربِ
أحجارٌ تؤرِّخُ مُنْتَهاها
هل مرَّتْ براكينُ العذارى من هنا
وهنا جراحُ الكادحينَ
هنا دموعُ الفاتحينَ
هنا هيامُ العاشقينَ
هنا سبايا أدْمَنَتْ غزلَ الشباب
وطقسَ ميثاقِ الجنون
هنا صبايا ملَّتِ التسآلَ عن رَعْشِ بصمتِ
العاشقينَ
هنا البنادقُ والجثثْ..

* شاعر من فلسطين